استعلاء المتنبي

... بين الثقة والغرور !!

بقـلـم أد / أحمد عبد الغفار عبيد

==========

عندما يصادفنا في محيط المجتمع الذي نعيش فيه ونختلط بأهله شخصا متعاليا مغرورا فإننا نمقته ، وتمتلىء نفوسنا غيظا منه ، وكراهية لمسلكه .

وفي شعر أبي الطيب المتنبي ما يدل على شيوع تلك النزعة في طبعه ومواقفه ومن ثم في شعره ، فهل كان استعلاء المتنبي غرورا وغطرسة ؟ أو كان تعبيرا عن ثقة في النفس بلغت لديه أقصى درجاتها ؟ .. ، وبين المنزعين خيط دقيق ، وأنا في هذا المقال سأعرض عليك ــ عزيزي القاريء ــ خلاصة اجتهادي في تفرس هذه الظاهرة ، من خلال تتبع أهم الأشعار التي تتضح منها ، ومعرفة مناسباتها ، وما أحاط بكل منها ، فالظاهرة موجودة ولا ريب ، وليست بحاجة إلى أن نعيد القول حولها ، بل تتطلب فقط أن نتأمل طبيعتها ، وما أحاط بها وبعث على استحكامها ، ثم نجتهد بعد ذلك في بحث دوافعها ودلالاتها .

وقد كنت قديما كلما قرأت للمتنبي أشعاره التي يتعالى فيها ويحقِّر من شأن غيره أجدني أقول في نفسي :

" من حقه والله أن يقول ما قال ، وأن يفعل ما فعل " !!

وكنت أحسب أن تلك النزعة ــ نزعة التعالي والشموخ ــ قد ظهرت في سلوك المتنبي وشعره بعد أن اشتهر أمره ، وذاع صيته ، وعلت بين الشعراء وذوي الشأن قامته ، وعلا أمره .. ، بيد أنني تكشفت لي بعض الأمور التي جعلتني أراجع

هذا التصور ، فقد استرعى اهتمامي وأنا أراجع أبياته المشهورة التي يعلي فيها من شأن شعره وشاعريته ، ويرفع أمر فنه فوق كل فن ، ويسمو به فوق كل بيان ، وهي التي يقول في بدايتها :

إن هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

استرعى اهتمامي عبارة أوردها رواة الديوان نصها : " ولما أُنشِد (أي سيف الدولة) أجاب دمعي ... إلخ استحسنها ، فقال (أي المتنبي) :

إن هذا الشعر في الشعر ملك ..... " (١)

فرغّبتني تلك العبارة في العودة إلى القصيدة المنوه بها لأعرف مناسبتها ومتى قيلت فوجدت الشراح يذكرون أنها مما قيل في سنة ٣٤١ هـ ، في حقبة اضطربت فيها علاقة المتنبي بسيف الدولة ، وسبق قوله لها مغاضبة وجفوة ، ثم رضي عنه الأمير ، فأقبل عليه أبو الطيب وأنشده تلك القصيدة ، وكان ذلك كما هو معلوم مشهور بسب الوشايات والسعايات التي يحيكها حاسدو المتنبي وخصومه ؛ ليوغروا صدر الأمير على شاعره المفضل بسبب ما ناله الرجل من قلب سيف الدولة ، وما تحصل لديه من ذهبه ونشبه .

ووجدتني مدفوعا لمعاودة قراءة أشعار أبي الطيب التي تبرز فيها نزعة الاستعلاء ؛ كي أستجلي حقيقتها ، وبواعث قول الشاعر لكل منها ـــ فعجبت إذ وجدت أن من تلك الأشعار ما قاله المتنبي في مرحلة الشباب ، حين كان ما يزال مغمورا لا يعرفه أحد ، ولا يزاحمه مزاحم !! ... ، وأيّد ذلك رأيي الأول في استعلاء أبي الطيب الذي ألمحت إليه ، وهو أن الرجل كان جديرا بما يقول ، وأن شموخه وتعاليه واعتزازه كان نابعا من شعور داخلي عميق بالجدارة والأحقية والثقة بالنفس ، فقد كان المتنبي يقدر موهبته حق قدرها ، ويدرك مقدار نفاسة ما منحته الأقدار ، واختصته العناية الإلهية به قياسا على ما عند الآخرين ، ممن

كانوا يتطاولون عليه ، أو يريدون أن يضعوا أنفسهم في مرتبته ، بل يحاولون النَّيْل منه ، والحطَّ من قدره .

وهأنذا أستعرض بين يدي القاريء أبرز تلك الأشعار التي تتضح منها نزعة الاستعلاء ، وآخذ بيدك أيها القاريء لتتأمل معي من خلال تلك القراءة جلية الأمر في تلك الظاهرة العجيبة في شعر أبي الطيب الذي قال عنه النقاد أنه " ملأ الدنيا وشغل الناس " !! .

وأول ما أعرض له في سياقنا هذا قصيدته التي ذكر الرواة أنها من شعر الصبا وهي تفيض ثقة واعتزازا بالنفس ، واعتدادا بالشاعرية ، وهي داليته المشهورة ومطلعها : (٢)

كم قتيلٍ كما قُتِلت شهيدِ ببياض الطُّلَى وورد الخدود

فبعد بداية غزلية بارعة ، حفلت بالصور الأخَّاذة ، والمعاني البكر غير المسبوقة ، والتي تشوَّق فيها المتنبي إلى أيام شبابه الأولى بالكوفة في قوله :

درَّ درُّ الصبا أأيام تجرير ثيابي بدار أثلة عودي

و " دار الأثلة موضع بظاهر الكوفة . والأثل شجر من جنس الطرفاء إذا حركته الريح ترنح ، وسُمع له صوت حنين " (٣) .... ، ثم تخلص من ذلك الغزل الرقيق إلى وصف حاله في مُقامه ببلاد الشام في بداية رحيله إليها ، وضيقه بعيشه هناك ، وتحطم آماله ، وخيبة مسعاه ، وإخفاقه في بلوغ ما طمحت نفسه إليه ، واغترب باحثا عنه .... إذ يقول :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وأرض نخلة قرية بقرب بعلبك ، فهو يقول إن إقامته فيها كانت إقامة الغريب المنبوذ ، الذي يتوقع الشر ممن يحيطون به ..، ثم ينقلنا الشاعر في تلك القصيدة

البارعة نقلة أخرى يكشف لنا من خلالها عن طبيعته المُتأبِّية ، ومضائه ، وشموخه وإيثاره الحياة الحرة الكريمة ، حياة من يحمل روحة على كفه ، ويكون فراشه صهوة جواده ، وسعادته في لبس لأمة الحرب ، وأنه يربأ بنفسه أن يركن إلى حياة الهوان ، أو أن يقبل الضيم ، وبيَّن أنه رحل في طلب العيش الكريم ، وعنَّاه ذلك وأقضَّ مضجعه ، وكلما قطع البلاد ، واجتاز المفاوز لقي الإخفاق تلو الإخفاق ، ولكن همته لا تعرف الكلال ، وطموحه يأبى عليه أن يستكين . وهو يُغَلِّبُ الأمل وينتظر لطف العزيز الحميد بإنسان نبيل في مثل حاله ، لباسه خشن ، وحياته بائسة ولباس الأوغاد أو " القرود " حسب تعبيره الثياب الرقيقة التي تصنع في " مرو " وعيشهم رغد هنيىء ، وهم أقل منه شأنا ، وأحط همة وقدرا !! .

وتأمل قوله :

مفرشي صهوة الحصان ولكن قميصي مسرودة من حديد
لأمة فاضة ودرع دلاص أحكمت نسجها يدا داود
أين فضلي إذا قنعت من الدهر بعيش معجل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقل عنه قعودي
أبدا أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود
ولعلي مؤمل بعض ما أبلغ باللطف من عزيز حميد
لسريٌّ لباسه خشن القطن ومرويٌّ مروَ لبسُ القرود !!

ونتابع القصيدة فنجد المتنبي ينقلنا مرة أخرى إلى معنى جديد ، ومعرض تتبدى لنا من خلاله شخصيته ، ونبض روحه ، إذ يسوق جملة من النصائح ، يزجيها لمن يريد أن يحيا حياة العزة والكرامة ، التي تكفل لمن يحياها طيب الذكر ، وحُسْن الأحدوثة ، فيطلب من ذلك الإنسان الأبيِّ الذي يريد أن يكون مثله في إبائه وعزته

وشموخه ـــ أن يحرص على حياة العزة والإباء ، أو فليمت كريما في ساحات الشرف والفداء ، فذلك النمط من العيش الكريم هو ما ينبغي أن يحرص عليه العقلاء الأباة ، لا حياة الذل التي يحياها الدهماء الخاملو الذكر ، فإذا مات الواحد منهم لم يشعر بفقده أحد ، ولم يحس باختفائه الناس ... ، ويهيب شاعرنا بالإنسان الأبيّ أن يبحث عن العز ويحرص عليه مهما كانت المعاناة التي تصيبه بسبب ذلك وأن ينبذ حياة الذل ولو كانت في جنان الخلود !!

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
لا كما قد حييت غير حميد وإذا مُتَّ مُتَّ غير فقيد
فاطلب العزَّ في لظىً وذر الذلَّ ولو كان في جنان الخلود

ويحلق بنا أبو الطيب بعد ذلك في آفاق عليا يطلعنا فيها على دخائل نفسه ، وطوايا وجدانه ، وهي أبيات من أروع ما قيل في معناها ، إذ نرى رجلا يتيه ويفخر ، ولكنه لا يؤسس فخره واعتزازه على حسب باذخ ، أو مجد سابق ـ على الرغم من وجود تلك المناقب والمحامد ـــ وإنما يجعل من شخصه إنسانا جديرا بأن يفخر به ذووه ، ويعتز به آباؤه وأجداده ... ، وهو إحساس يدل على تأصل الشعور بالتفوق وتقدير أبي الطيب لنفسه ، ويقينه بمبلغ نبوغه ، وحجم تفوقه وتميزه ، فهو لا يشعر بأنه محتاج أن يشرف بقومه بل الأحرى بهم أن يشرفوا به ، وهو إذ يفخر بنفسه يدرك أن في تلك النفس من الميزات والمآثر ما تشيِّد منه صروح من المجد والاعتزاز ، فليست به حاجة إذن إلى أن يجتلب الفخر من أصل ينتمي إليه ، أو أرومة يتصل بها ، أو عشيرة ينتمي إليها ...

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

ونصل مع أبي الطيب في ختام داليته الرائعة إلى موطن الشاهد وبيت القصيد ـ كما يقول القدامى ـ لنراه يعلن دون مواربة نزعة الاستعلاء والعُجب ولا يخفيها ، ويصرح بها ولا يداريها ، وهي التي جرّت عليه العداوات والأحقاد ، وأثارت الضغائن ، الشاعر يعرف أمر تلك النزعة ولا ينكرها ، بل يعلل لها ويعتذر عنها إذ يقول :

إن أكن معجبا فعُجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا في أُمَّة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

فهو معجب بنفسه لأنه أهل لذلك الإعجاب ، وهو يتعالى على غيره ممن يتطاولون إلى منزلته أو يناوشونه ويحاولون النيل منه لأنه يرى نفسه جديرا بأن يتعالى عليهم إذ لم يجد منهم من يبلغ شأوه أو يدانيه ، وقد اجتمعت لديه مقومات النبوغ وبواعث التفوق والتميز ، وأمارات الرفعة وعلو الشأن ، فهو أخو الجود ، وصنو الكرم ، ورب القوافي ، وفارس البيان ، وهو شجا في حلوق الحاسدين والكائدين ، بل إنه غريب بين أهل زمانه ، وفريد بين من يعايشونه ويزحمون الحياة من حوله ، وقد قدِّر عليه أن يعيش في زمن لا يلائمه ، وفي بيئة لا تعرف له قدره ، وبين قوم لا يقدِّرون نبوغه كما ينبغي أن يكون التقدير ، ولا يقابلون موهبته ونبوغه بما يستحق من الإجلال والإكبار ، إن مأساة أبي الطيب كما يعتقد ويقرر أنه عاش حياته في أمة اضطرب أمرها ، وانتكس طالعها ، وتحكم في مصيرها شرذمة ضئيلة الشأن ساقطة الهمة ، لا تعرف المروءة ، ولا تعترف لذي فضل بفضله ، ولا صلاح لقوم كهؤلاء إلا بأن يتداركهم الله عز وجل بلطف من عنده ، ويهيىء لهم أسباب السداد والرشاد .

فأبو الطيب بأخلاقه ومثالياته ، وإبائه وترفعه غريب بين هؤلاء ، كصالح عليه السلام بين قومه ثمود !! ، وقد ذكر المحققون من الشرّاح والمترجمين لأبي الطيب أنه نبذ بلقب " المتنبي " لأنه شبه نفسه في غير موضع من شعره بالأنبياء والمصلحين (٤)، ومنها في هذه القصيدة ذلك البيت ، وكذا قوله الذي تقدم في هذه القصيد ة :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

فمرة شبه نفسه بالمسيح وأخرى شبهها بصالح ـ عليهما وعلى نبينا السلام ـ وهذان البيتان وأشباههما كانت من الأسباب التي جعلت خصوم المتنبي ينبذونه بذلك اللقب ولم يكن منه ادعاء للنبوة كما يزعم بعض من ترجم له ، وقد أفاض في تحرير تلك القضية الأستاذ محمود شاكر ـ عليه رحمة الله ـ في كتابه عن المتنبي (٥) .

وهذه القصيدة كما رأينا تؤكد أن نزعة الاعتداد بالنفس أو ما أسميته "الاستعلاء " عريقة في شخصية المتنبي وفي شعره ، وهي تدل دلالة بينة على على الثقة الراسخة بالنفس ، أو بعبارة أدق تقدير الرجل لموهبته ، وهي التي كانت تشعره منذ نعومة أظفاره بالتفوق والنبوغ ، وبخاصة في ميدان الشعر ، الذي امتلك أبو الطيب أدواته عن اقتدار ، فكيف به إذن عندما يشتهر ، وتتسع معارفه ، وتزداد خبراته وصلاته بالناس ؟ .

* * * * *

فإذا انتقلنا إلى مرجلة أخرى من مراحل حياة أبي الطيب الحافلة بالأحداث ، وهي الحقبة التي اتصل فيها بسيف الدولة ، وتوثقت صلته به ، وعظمت مكانته لديه ، لقد وجد أبو الطيب في تلك الحقبة من يقدر نبوغه ، ويعرف قدره ، بل ويجعله من خاصته والمقربين إليه ، لا ريب أن ما ناله المتنبي في جوار سيف

الدولة من تكريم وإكبار كان باعثا على أن تقوى نزعة الاعتزاز بالنفس لدى شاعرنا وتتأصل بل وتستحكم .... ، وكلما ازدادت شهرة المتنبي وعلا صوته كثر حساده ومناوئوه ، وزادت من ثم حدته على الكائدين له واحتقاره لهم وتعاليه عليهم وقد كان من هؤلاء مَنْ وصفهم المتنبي بأدعياء الشعر أو " المتشاعرين " حسب تعبيره وقد عابهم المتنبي بفساد الأذواق أو مرض الصدور الناتج عن الحسد والغيرة التي تأكل قلوبهم ... يقول :(٦)

أرى المتشاعرين غُروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجد مرًّا به الماء الزُّلالا

وقالوا هل يبلِّغك الثريا فقلت نعم إذا شئت استفالا

فهو لا يرى غرابة في أن يتعلق المتشاعرون بذمه وانتقاصه والكيد له ، ولِمَ لا ؟؟ وهو بالإضافة إليهم كالداء العضال الذي ليس له ترياق ، فقد كشف ضعفهم ، وفضح جهلهم ، ومن ذا الذي يحب هذا النوع من المتفوقين ، الذين لا يجد من حولهم موضعا ، ولا ترتفع معهم قامة .

ونتوقف عند قصيدة أخرى من قصائد أبي الطيب التي مدح بها سيف الدولة والتي يعلن فيها أنه واحد عصره ، وفريد زمانه ، كل ابتكار فمن قريحته ، وكل بارع فمن كنانته ، وكل صوت فمن صدى صوته ... ، وهي القصيدة التي مطلعها : (٧)

لكل امرىء من دهره ما تعودا

وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وقد أنهى أبو الطيب رائعته تلك بأبيات تقترب في حجمها من ثلث أبيات القصيدة ، عبَّر فيها عن مشكلته مع من يوشون به لدى الأمير ، ويوغرون صدره عليه ،

وطالب سيف الدولة بأن يكبتهم ، ويعين شاعره عليهم .... ، وهي أبيات تدل دلالة قوية على ثقة أبي الطيب في إمكاناته ، وتأكده من عظمة موهبته الشعرية ، التي لا يرى لها نظيرا ، فيخاطب سيف الدولة في إدلال بيّنٍ ، وثقة زائدة ، طالبا إليه أن يكبت حاسديه ، ولا يصيخ لوشاياتهم ، ولا يكتفي بأن يجعل ذلك ملتمسا يرجوه من الأمير ، بل يعد ذلك من قبيل الواجبات ؛ لأن إخلاص الشاعر للأمير ، وبراعته في مدحه وإبراز جوانب عظمته هي السبب في حسد من حسده ، وضغينة من اضطغن عليه ، فلا أقل من أن يعينه الأمير في التصدي لأولئك الكائدين ، وهو لا يطلب من الأمير أكثر من أن يحسن الظن بشاعره المخلص له ، والشاعر كفيل إن وجد هذا التأييد وحسن الظن به أن يشتت شمل هؤلاء ، ويخرس ألسنتهم ، ولن يعجزوه .

وفي براعة لا تبارى ، و " دبلوماسية " يتقنها المتنبي ويحسن اصطناعها ــ يتأدب الشاعر مع أميره فيقول له : إنك إن أعنتني في مواجهتي لمن يتربصون ، ويكيدون لي ، وأتحت لي أن أكبتهم وأحبط كيدهم فليس لي في ذلك فضل ، فأنا يدك الباطشة ، وساعدك الضارب المظفر ... :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فأنت الذي صيرتهم لي حسدا

إذا شدَّ زندي حسن رأيك في يدي

ضربت بنصل يقطع الهام مغمدا

وما أنا إلا سمهري حملته فزيِّن معروضا وراع مسددا

وتأتي بعد ذلك أبياته التي سارت مسير الأمثال ، والتي تُعدُّ من غرر شعره ، ومن أقواها دلالة على استعلائه وشموخه ، واستهانته بخصومه وعائبيه ، إذ يدلُّ فيها بشعره ، ويباهي بسيرورته واشتهاره ، حتى لكأن الدهر يروي أشعاره ويذيعها ، فكلما قال قصيدة نشرها الدهر في كل موطن ، وأذاعها على كل لسان ، ورددها

في كل محفل ، وفرضها على الشادين والمتغنين !!... ، ثم يطالب أبو الطيب أميره المحبوب بأن يختصه بالجائزة كلما مُدح بشعر مهما كان شخص مادحه ؛ لأن من يمدحه غير شاعره المبدع (أبي الطيب) فإنما يستمد من معانيه ، ويغرف من بحره ، ويقتبس من براعاته ، فأبو الطيب ـ إذن ـ أولى بالجائزة ، وأحق بالمكافأة وأخلق بأن يعزى إليه الفضل .

إن القلم ـ أي قلم ـ ليعجز أن يصوغ معاني أبي الطيب الرائعة في أبياته تلك فمهما اجتهدت فلن أبلغ شأوها ، أو أستطيع أن أصوغها في عبارة توفيها حقها ، وتحمل كل دلالاتها ، فليتأملها القاريء ، وليتذوق روعتها ، فذلك أبلغ وأجدى .. يقول أبو الطيب :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمّرا وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا
أجزني إذا أُنشِدْتَ شعرا فإنّما بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كلّ صوتٍ غير صوتي فإنما
أنا الصادح المحكيُّ والآخر الصّدى

ثم ينهي أبياته تلك بذكر أفضال الأمير عليه وما ناله في جواره من نِعَم ، وما حصّله من ثراء ، وأنه بذلك استراح من العناء في طلب النوال لدى غيره ، وترك ذلك لمن لم يظفر بمثل ما ظفر به ، بل لقد قيّد نفسه في جوار الأمير المقدر لفنه ، عن طواعية من الشاعر ، ولا غرو في ذلك فمن وجد الخير الجزيل لزمه ولم يتحول عنه ، فقد كان سيف الدولة أملا تمناه الشاعر ، فلما حظي منه بما أراد حطّ رحاله بساحته ، وتقلب في أفياء إحسانه .

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا
وقيّدت نفسي في ذراك محبّة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

إذا سأل الإنسان أيامه الغنى   وكنتَ على بُعدٍ جعلتك موعدا

ألا ما أعظمها تلك القريحة البارعة التي أملت على أبي الطيب تلك المعاني ، وألهمته تلك الفرائد ، واستخرجت له تلك اللآلىء، وعرفت كيف تصفيها من شوائب الغموض ، وتنظمها في عقودٍ بديعة ، وتعرضها في لوحات معجبات !! .

* * * * *

وتتزايد مكائد الحاقدين على أبي الطيب لدي سيف الدولة فتزداد نزعة الاستعلاء قوة واستحكاما ، فلا ريب أن رجلا بمثل صلابة المتنبي واعتزازه بنفسه وثقته في تميزه لا يمكن أن تنال منه الصعاب أو يعطي الدنية من نفسه ، ولا ريب أيضا أن يحمله تجاهل الأمير له أو إعراضه عنه إلى أن يعتب عليه ، ويباهي بشعره وشاعريته ، ومن أبرز ما يمثل ذلك اللون من الشعر الذي برزت فيه ثورة أبي الطيب وعتبه ، وتحديه العائبين بشاعريته وشعره ـ قصيدته التي مطلعها : (٨)

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وقد ذكر الشراح في مناسبتها أنه قالها عندما جرى بينه وبين بعض المتشاعرين حوار ، وظن الحيف عليه والتحامل ، وعاتب الأمير عتابا مؤثرا ، ولوَّح له بالرحيل عنه إن لم ينصفه ... في قوله :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقوله :

يا من يعز علينا أن نفارقهم   وجداننا كل شيء بعدكم عدم

وقوله :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا   أن لا تفارقهم فالراحلون هم

ومما يدل منها على اعتداده بشعره وشاعريته قوله :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا   بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعتْ كلماتي مَنْ به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

وتلك أقوال تفيض اعتزازا واعتدادا وثقة ، فالمتنبي كما قلت وكررت كان يقدر موهبته ، ويحس في قرارة نفسه تفوقه وتميزه ، ومن ذلك المنطلق تأتي عباراته عندما يعبر عن هذا الإحساس قوية فياضة ، يغلفها الشعور بالتفوق ، وتحتشد لديها المبالغات التي لا أجد لها تعليلا سوى الدلالة على عمق إحساسه بما يقول ، فهي ليست وليدة رغبة في التشويش ، أو الادعاء المموه ، بل تصدر عن إدارك واعٍ بحقيقتها ، وإيمان عميق بفحواها .

* * * * *

ونمضي مع أبي الطيب في مسيرته الشعرية المعبرة عن الثقة في النفس والاعتزاز بالموهبة الشاعرة فنراه بعد معاتبة ومغاضبة لسيف الدولة تتحسن العلاقات بين الأمير وشاعره الذي خلّد اسمه في سجل المجد والرفعة ، فيقبل عليه ـ كما حكى الرواة ـ وينشده قصيدته التي مطلعها : (٩)

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل   دعا فلباه قبل الركب والإبل

ونجد مما يتصل من هذه القصيدة بموضوعنا أبياتا يقول فيها : (١٠)

يأيها المحسن المشكور من جهتي   والشكر من قبل الإحسان لا قبلي
ما كان نومي إلا فوق معرفتي   بأن رأيك لا يؤتى من الزلل
أقلْ أنلْ أقطعْ احملْ علِّ سلِّ أعدْ
زدْ هشَّ بشَّ تفضلْ أدْنِ سُرَّ صِلِ

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

وفي الأبيات ما يدل على ثقة أبي الطيب في حسن تقدير الأمير لشاعريته ، ومعرفته بتميز شعره ، وهذا ما يطمئنه كما ذكر ، ويبث في نفسه الراحة ، بل يجعله ينام قرير العين فوق حَشيَّة من الثقة بمعرفة الأمير لقدره ، وحلمه عليه ، وعدم سماعه لوشايات الواشين ، وتستريح نفس أبي الطيب ـ كما يتضح من تلك القصيدة ـ بعد أن بلغ بها القلق مبلغه ، وراودت صاحبها على الرحيل عن سيف الدولة ، كما رأينا في قصيدته التي أشرنا إليها آنفا والتي مطلعها :

وا حرَّ قلباه ...

ويجد أبو الطيب في نفسه شيئا من الهدوء والرضى فيهيب بالأمير في تدلل أن يعاود إكرامه كما كان يفعل فيلتمس منه أربعة عشر ملتمسا في بيت واحد هو الذي يقول فيه :

أقل أنل ... إلخ

وهو يدل على رغبة عارمة من الشاعر إلى أن يكبت خصومه في هذا الميدان الفني الفسيح ، فعندما يتعالى عليهم ويتفاصح يأتيهم بما يعجزون عنه ، ولا يستطيعون محاكاته ، وهذا شأن المبرزين دائما ، لا يقبلون بما دون القمم ، وهنا نرى أبو الطيب عندما يتكلف يأتي بما لا يقدر عليه سواه ، وقد ذكر الشراح والرواة أنه لما رأى إعجاب سيف الدولة ومن حوله بقصيدته تلك ، ودهشتهم مما اجتلبه في بيته هذا قال مقطوعته الرائعة التي لخص فيها فكرة تميز شعره ، وارتفاع شأن شاعريته بقوله :

إن هذا الشعر في الشعر ملك

وسأعرض لها بعد قليل ، ولكن لنتأمل الآن براعة أبي الطيب في بيته ذلك العجيب

ونتمهل قليلا في قراءة مثل هذا النمط الذي أعتده نابعا من رغبة في التحدي في ميدان الشاعرية ، والمهارة في الصناعة ، فعندما يرغب المتنبي في التفاصح يأتي بما يدل على التمكن والتميز ، فقد أمره في هذا البيت ـ كما ذكر الشراح ـ " بأربعة عشر أمرا في بيت واحد .. ، ولمّا أنشد (أقل أنل) رآهم يعدُّون ألفاظه فقال وزاد فيه : (١١)

أقلْ ، أنلْ ، أُنْ ، صُنِ ، اِحملْ ، علِّ ، سلِّ ، أعِدْ

زدْ ، هشَّ ، بشَّ ، هبِ ، اغفرْ ، أذْنِ ، سُرَّ صِلِ

وفيه ستة عشر مطلبا أي بزيادة فعل طلبي في كل مصراع أكثر من قوله الأول من قصيدة " أجاب دمعي .. " ، فرآهم يستكثرون الحروف فقال : (١٢)

عشِ ، ابقَ ، اسمُ ، سُدْ ، قُدْ ، جُدْ ، مرِ ، انْهَ ، رِ ، فِ ، اسْرِ ، نِلْ

غِظْ ، ارْمِ ، صِبِ ، احْمِ ، اغْزُ ، اسْبِ ، رُعْ ، زَعْ ، دِلِ ، اثْنِ ، نُلِ

وهذا دعاء لو سكتُّ كُفِيته لأني سألت الله فيك وقد فعلْ

فأتى في البيت الأول منهما بأربعة وعشرين فعلا طلبيا ، في كل مصراع اثنا عشر وأحيل القاريء على شرح ديوان المتنبي لمعرفة معاني تلك الأبيات خشية الإطالة وحتى لا نخرج عن سياق ما نحن بصدد بيانه .

* * * * *

وتبقى مقطوعته الرائعة التي حفزتني لتناول هذه الظاهرة في شعره وهي تتألف من ثلاثة أبيات ، وقد ألمحت إليها في بداية هذا المقال ، وهي التي قالها لما بلغه إعجاب سيف الدولة بقصيدته : " أجاب دمعي .. " ، وهي على قصرها ذات دلالة بعيدة فيما يتصل بظاهرة الاستعلاء في شعر المتنبي التي هي محور بحثي هذا ، وقد لخص فيها ببراعة واقتدار أعظم ما يمكن أن يقوله شاعر

يعرف لنفسه قدرها ، ولموهبته مقدارها ، ولفنه تميزه وخصوصيته ..... وهي قوله : (١٣)

إن هـذا الشعر في الشعر مَلَكْ سار فهْو الشمسُ والدنيا فَلَكْ
عَدَلَ الرحمنُ فيه بيننا فقضى باللفظِ لي والحمدِ لكْ
فإذا مرَّ بأُذْنيْ حاسدٍ صار مِمَّنْ كان حيًّا فهلكْ

وهذه القطعة التي لم تتعد الأبيات الثلاثة تعد نمطا من الفن الرفيع الذي لا يحسنه سوى المتنبي ، وهي ومثيلاتها يحق لقائلها أن يعجب بشعره ويتيه ما شاء له الإعجاب والتيه ؛ إذ بلغ فيها الغاية وأربى على النهاية ، أفكار دقيقة لايبلغ غورها إلا الأفذاذ ، وكسوة من الصياغة بديعة مؤثرة ، فاجتمع لها عمق المضمون وابتكاره ، وروعة التعبير ، وجمال الصورة ، وعذوبة الإيقاع ..!!

إن هذا الشعر ـ أيْ شعر المتنبي ـ ذلك العندل الصداح إذا قيس إلى شعر غيره فهو كالملك عندما نقايسه بفرد من أفراد البشر ، وهو قياس لا يثبت في عقل ، ولا يستقيم في ميزان ، فبين ملائكية الملك وبشرية البشر بون بعيد ، فالجوهر مختلف ، ولا وجه للمقارنة بينهما في الفضل والسمو ، والطبيعة والمنزلة ... ، وشعر المتنبي فنٌّ قُدِّر له بسبب تميزه وتفرده أن يشتهر ويذيع ، ويعرفه القاصي والداني فهو كالشمس تُرى في كل مكان ، وتُبْصَر في كل بقعة ، ولا يخفى أمرها على أحد ... ، وجمال هذا الشعر محيِّر في معرفة أسبابه وبواعثه ، فمتذوقه لا يدري أين يكمن سر تميزه وروعته ، أمن عظمة الأمير الذي مُدِح به ، وصيغ من أجله ، أم تعود إلى براعة الشاعر الذي صاغه فأحسن صوغه ؟؟ .. ، ويعترف أبو الطيب في معنى مبتكر بأن القسمة الإلهية قد عدلت بين الطرفين ، وأنصفت كلا منهما ، فمنحت الشاعر قوة البيان ، ودقة التعبير ، وقضت للأمير بالفضل وجلائل الأعمال

التي تبعث على الحمد وتحفز على المدح والثناء .... ، وهذا الشعر ـ شعر المتنبي ـ الذي سار واشتهر اشتهار الشمس فيه غيظ الحاسدين ، وكبت الكائدين ، وهو عليهم عمى ووبال ، فإذا سمعه أحدهم أوشك الغم أن يهلكه ؛ لما يرى من توفيق قائله ، وبراعة صائغه ، وما اهتدى إليه من صائب القول ومحكم البيان !!

فأيُّ شيء أعظم دلالةً على ثقة المتنبي بشاعريته وتقديره لها من تلك الأبيات التي أفردها للتعبير عن ذلك المعنى ، والتأكيد عليه ؟؟ .

* * * * *

وإذا كنت قد طرحتُ فيما تقدم ظاهرة الاستعلاء في شعر أبي الطيب ، وسُقتُ عليها الأدلة أرى أن أعرض هنا أهم بواعث ومقومات تلك النزعة في شخصية المتنبي وانعكاساتها في شعره . ولعل من أهم تلك البواعث ما يمكن أن ألخصه في الجزئيات التالية :

١) كان المتنبي يحمل بين جنبيه نفسا ظامئة إلى المجد تواقة إلى معالي الأمور وعظائمها ، لا يحدها في ذلك حد ، ولا تقنع بما دون القمم السامقة ، مهما كلفها ذلك من المشقات ، وجلب عليها الأعباء والأهوال ، وهو القائل في مديحه لسيف الدولة ، وقد تابع الغزوات والفتوحات دون كلال أو إيثار للدعة والسلامة :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وقد كان المتنبي واحدا من أصحاب تلك النفوس الكبار ، المتعطشة للأمجاد وعظائم الأمور ، في عصر شاع فيه النفاق ، واستشرى الملق ، وتسلق الوصوليون حتى أمسكوا بتلابيب السلطة ، وصار بأيديهم تصريف شئونها ، ودالت دولة العرب ، وسادت دولة الخدم ، وكان ذلك بداية انحسار المد السياسي لدولة بني العباس في القرن الرابع الهجري ، وإن رجلا أوتي ما أتيح لأبي الطيب من شاعرية فياضة ،

ومقدرة بيانية فذة لخليق به أن يرهو بنفسه ويعتز ، ويرتفع بشخصه وفنه عن وهدات الإسفاف ودركات التردي التي انحط إليها كثيرون من معاصريه من مشهوري الشعراء والأدباء .

لقد حرص أبو الطيب على الارتفاع بنفسه عن دنيات الأمور ، ولم يعط الدنية من نفسه ، ولا قبل لها أن تتجرع الهوان ، حتى من أحب الناس إليه ، وأكثرهم عليه أفضالا ، وهو سيف الدولة ، وقد جرَّ هذا الطبع الأبي على شاعرنا عداوات وإحناً وأحقادا ، وكثيرا ما نطالع في سيرته رفضه القدوم على كثيرين ممن خطبوا ودَّه ، ورغبوا في اتصاله بهم ، ومدحه إياهم ، وكثيرا ما مَنّوْه الأماني ، ووعدوه الجوائز السخية ، ولكنه كان يربأ بنفسه أن يمدح من لا يستأهل المدح أو يسخر شعره وموهبته في تملق أمثال هؤلاء ، حدث ذلك من المتنبي في زمن كان غيره من الشعراء يمدحون " باعة البصل والباذنجان " !! حتى يصلوا إلى ما يريدون !! ولكن أبا الطيب كان طرازا فريدا لا نظير له في الترفع والاعتداد بالنفس ، وهو القائل :

ولا أمسي لأهل البخل ضيفا   وليس قرى سوى مخ النعام
وآنف من أخي لأبي وأمي   إذا ما لم أجده من الكرام

٢) ثورة المتنبي ورفضه للواقع السياسي والأحوال العامة التي استشرت في الدولة الإسلامية في زمنه ، واكترابه لهذا الواقع الذي كان همًّا ملازما لكثيرين من أهل الغيرة على أحوال المسلمين وما آل إليه مجدهم من تبدد ، وما أصاب قوتهم من وهن ، وعزهم من قعود وانحسار ، ولعل في ذلك ما يفسر إعجاب أبي الطيب ببني حمدان ومن على شاكلتهم من الأسر العربية ذات البأس والشجاعة ممن لعبوا دورا في الإبقاء على جانب من هيبة المسلمين ، وحموا أطراف الدولة من غارات

أعدائها المتربصين . ولذا كانت سيفيات أبي الطيب من أروع شعره ، بل من عيون الشعر العربي وغرره على الإطلاق .

٣) كان أبو الطيب منذ نعومة أظفاره شغوفا بالمعرفة ، نهما في طلب العلم وتحصيل الثقافات المتنوعة ، وأعانته شهرته واستقراره المادي ، وعلى الأخص بعد أن اتصل بسيف الدول ونال الحظوة لديه على أن يفرغ للإطلاع وإشباع نهمه للمعرفة ، وأثر ذلك في شعره ، فكانت تلك الثقافات المتنوعة التي حذقها المتنبي معينا لا ينضب أمدَّ قريحته الشاعرة بفيض من الفكر العميق ، والنظر المستبصر لأحوال الحياة ، وطبائع الناس وأخلاقهم ، ولعل شيوع الحكمة في شعر المتنبي هو أبرز المظاهر التي تؤكد عمق معارفه واتساع ثقافاته ، وثاقب فكره وعميق رؤاه .

٤) استتبع اتساع ثقافة المتنبي وتنوع معارفه قدرته على الأداء الشعري الممتع الذي لم يتح لغيره من الشعراء ، ولا ريب في أن المتنبي كان ذا موهبة شعرية فذة ، وقدرة تعبيرية طيِّعة ، وهذه وتلك من المواهب والملكات الممنوحة ، التي لا تكتسب ، ولا تتأتى لكل من يريدها ، ولكن من يُمنح هذه الموهبة فينميها ويثريها بالنهم المعرفي الواسع ـ كما فعل المتنبي ـ يضمن لنفسه احترام المتلقين لفنه ؛ إذ تبهرهم ابتكاراته ، وتستحوذ على إعجابهم لفتات فكره وعقله وتأمله .

٥) لم يسخر أبو الطيب شاعريته لمآرب مادية ، أو نفع دنيويٍّ رخيص ، بل جعلها تعبيراً عن مشاعره وإحساساته وخوالج نفسه ، وخواطر قلبه ونبضات روحه ، فجاءت أكثر أشعاره وبالأخص ما قاله منها في مرحلة نضوجه الفكري آيات في الفن البديع ، وهو القائل تأكيدا لذلك المعنى في مدحه لأبي العشائر الحمداني :

فسرتُ إليك في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاش

وبهذه الرؤية المثالية لقيمة الشعر ودوره في الإشادة بمن هم أهل لأن تذكر مآثرهم

وأفضالهم ــ بهذه الرؤية عبّر المتنبي بشعره في أغلب الأحوال عن ذاتيته وقناعاته وتمثل في شعره احترامه لنفسه ، ومن ثمَّ احتقاره للأدعياء الذين يحيطون أنفسهم بسياج مصطنع من المجد الزائف ، الذي ينخدع به من ليسوا في فراسة أبي الطيب وبُعد غوره ، وخبرته بطبائع البشر ، ومعادن الرجال .

* * * * *

هذا عن بواعث ظاهرة الاستعلاء في شخصية المتنبي من خلال شعره ، فما أثر تلك النزعة في شعره خاصة ؟ وبم ميزت شعره عن شعر غيره ؟

أستطيع أن ألخص أهم تلك الآثار في النقاط التالية :

أولا : أن شعر أبي الطيب جاء نمطا فريدا إذ رأيناه قد عاش بالشعر وللشعر ، دون أن يسخر فنه أو يبذله رخيصا في سوق الاستجداء ، ولم يمنحه إلا لمن يستحقه ، فربأ بنفسه عن أن يسخر موهبته ، وكان علامة مميزة ، ومثالا نادرا بين شعراء العربية ، وكان ذلك المنزع من أبرز ما يميزه بحسبانه إنسانا وبحسبانه شاعرا .

ثانيا : أن شعر المتنبي لم يكن في مجمله مفروضا عليه من خارج نفسه كما كان الحال لدى كثيرين من الشعراء ، وشعره بذلك يعد من أروع صور شعر النفس الإنسانية الذي عرفته العربية على امتداد تاريخها الشعري الحافل .

ثالثا استطاع المتنبي أن يجمع في معالجاته الشعرية وتجاربه القوية ذات التعبير المؤثر أروع صور البيان وأكملها في لغة العرب ، بما وُهبه من قدرة على صياغة الأفكار الدقيقة ، وبما انبعث في نفسه من خواطر ومشاعر جعلته جديرا بأن يبدع فرائد لا نظير لها ، وأقوالا سارت مسير الأمثال . وليست الحكمة في شعر أبي الطيب إلا نتاج اجتماع هذه القدرات وتلك المواهب وذلك الفيض المعرفي الذي قلما بلغه شاعر سواه .

الهوامش :

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ٢ / ٣٧٤

(٢) المرجع السابق ١ / ٣١٣

(٣) المرجع ١ /٣١٤ .

(٤) المرجع ١ /٣٢٤ .

(٥) السفر الأول من ٧٦ ـ ٩٢ . وانظر السفر الثاني من ١٨٥ ـ ٢٢٤ .

(٦) ديوان أبي الطيب ٣ / ٢٢٨ .

(٧) المرجع السابق ١ /٢٨١ .

(٨) المرجع ٣ / ٣٦٢ .

(٩) المرجع ٣ / ٧٤ .

(١٠) المرجع ٣ / ٨٥ .

(١١) المرجع ٣ / ٨٩ .

(١٢) المرجع ,, / ,,,, .

(١٣) المرجع ٢ / ٣٧٤

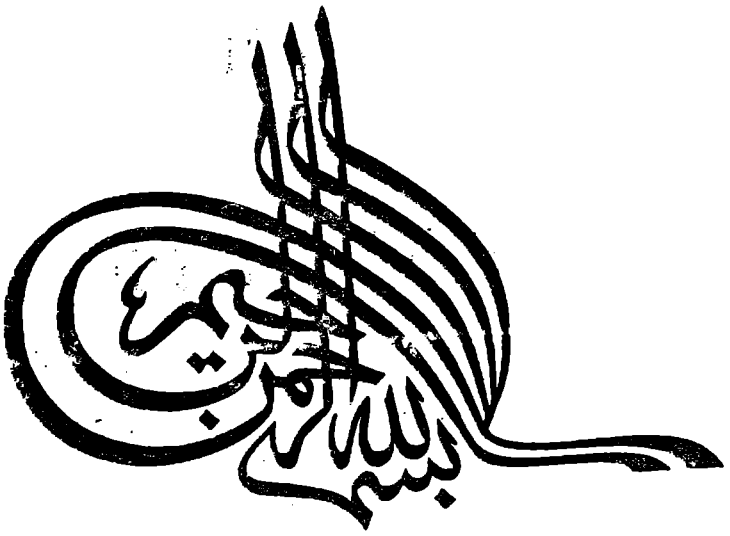
بسم الله الرحمن الرحيم